مقال

الوقت في حياة المرأة المسلمة



بقلم: د. زلفى أحمد - المدينة المنورة

كل مفقود عسى أن تسترجعه إلا الوقت؛ فهو إن ضاع لم يكن هناك أمل بعودته، ولذا كان الوقت أنفس ما يملكه الإنسان. والمسلم الحق لا يفرط في قليله، فكيف في كثيره؟ فيجتهد أن يضع كل شيء مهما ضؤل في موضعه اللائق به، ويغالي بالوقت مغالاة شديدة، مدركاً أن الوقت بضاعته التي لا يسمح بكسادها، وعمره الذي لا يسمح بضياعه.

إن الإسلام دين يعرف قيمة الوقت، ويدرك خطورة الزمن، ويجعل من دلائل الإيمان وأمارات التقوى أن يعي المسلم هذه الحقيقة ويسير على هداها. قال الله تعالى: "إن في اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السماوات والأرض لآيات لقوم يتقون"، ويُثمّن الحكمة: (الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك).

وقد وزّع الإسلام عباداته الكبرى على أجزاء اليوم وفصول العام، فالصلوات الخمس تكتنف اليوم كله، وللزكاة وقت محدّد، وكذا الصوم والحج، وذلك لتترتب الحياة الإسلامية من مطلع الفجر إلى مغيب الشفق الأحمر ومن بداية العام إلى نهايته قال تعالى: "فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون".

ومن محافظة الإسلام على الوقت حثّه على التبكير، ورغبته في أن يبدأ المسلم أعمال يومه نشيط الجسم، طيّب النفس. ونظام الحياة الإسلامية يجعل ابتداء اليوم من الفجر، ويفترض اليقظة الكاملة قبل طلوع الشمس، ويكره السهر الذي يؤخر صلاة الفجر وفي الحديث الشريف: "اللهم بارك لأمتي في بكورها". وإنه لمن الغفلة والحرمان أن يألف أقوام النوم حتى الضحى، فتطلع عليهم الشمس وهم يغطّون، على حين تطلع على آخرين وهم منهمكون في وسائل معاشهم ومصالح حياتهم. روي عن فاطمة بنت محمد صلى الله عليه وسلم قالت: مرَّ بي رسول الله وأنا مضطجعة متصبّحة فحركني برجله ثم قال: "يا بنية قومي اشهدي رزق ربك ولا تكوني من الغافلين، فإن الله يقسم أرزاق الناس ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس". وإن الجادين والكسالى ليتميّزون في هذا الوقت، فيُعطى كل امرئ حسب استعداده من خير الدنيا والآخرة.

لهذه الاعتبارات جميعاً وغيرها أحببت أن أتطرق لموضوع الوقت وأهميته في حياة المرأة المسلمة حتى يوفقها الله تعالى إلى حسن استغلال وقتها في هذا الزمان الذي ضاعت فيه الحقوق والواجبات، وأُهملت فيه التكاليف والأوقات حتى أصبح همّ الناس - ولا سيما النساء - التفكير في كيفية إضاعة الأوقات بما لا يعود عليهن بالنفع والخير. فنجد في كل بيت أو حيّ مجلساً نسائياً، لا نسمع فيه ما ينفع القلوب والعقول، وإنما الحديث في أمور دنيوية لا تسمن ولا تغني من جوع. وهذا يخالف ما كان عليه النساء في عصر صدر الإسلام من حسن تدبير، وإدارةٍ للوقت واستثماره. ولقد فُتح بفضل الله أمام المرأة المسلمة التقية الكثير من الأبواب والمداخل التي تستطيع بسهولة أن تستغل بها وقتها، وتنتفع بها في أمور دينها ودنياها ومن ذلك:

١. الاستغلال الإيماني:

وهذا باب واسع تستطيع المرأة أن تستغل فيه وقتها؛ لإصلاح نفسها وقلبها، فتخلو مع الله تارة، وتصلي النوافل تارة، وتتصفح كتاب الله تارة، وتحرص أن تكثر من ذكر الله تعالى تارات أخرى. ولدينا نماذج متميزة من النساء قديماً وحديثاً تميّزن بالاستغلال الإيماني:

أ. من هذه النماذج عائشة بنت أبي بكر الصديق، فقد أخبر القاسم بن محمد عنها قائلاً: "كنت إذ غدوتُ يوماً أبدأ ببيت عائشة - وهي خالته - أسلّم عليها. فغدوت يوماً فإذا هي تسبح وتقرأ: [فمنّ الله علينا ووقانا عذاب السموم]، وتدعو وتبكي وترددها، فقمتُ حتى مللتُ القيام، فذهبت إلى السوق لحاجتي ثم رجعت فإذا هي قائمة كما هي تصلي وتبكي".

ب. ومن تلك النماذج أيضاً (أم حسان) حيث كانت رحمها الله مجتهدة عابدةً، فدخل عليها سفيان الثوري فلم يرَ في بيتها غير قطعة حصير، فقال لها: لو كتبتِ رقعة إلى بعض بني أعمامك ليغيروا من سوء حالك. فقالت: "يا سفيان لقد كنتَ في عيني أعظم، وفي قلبي أكبر من ساعتك هذه، أما إني لم أسأل الدنيا مَن يملكها، فكيف أسأل مَن لا يملكها؟ يا سفيان والله ما أحب أن يأتي عليَّ وقت وأنا متشاغلة فيه عن الله بغير الله". فبكى سفيان.

فهذه المرأة حرصت على استغلال وقتها دائماً، ولكن لا مانع أن تكون جوارح المرأة مشغولة بشيء من مشاغل بيتها وعائلتها، وتذكر الله بلسانها، أو تسمع شيئاً مفيداً، فاليوم عمل ولا حساب، وغداً حساب ولا عمل.

٢. الاستغلال الدعوي:

إن الدعوة إلى الله تعالى واجبة على الرجال والنساء

على حد ســـواء، قال تعالى: "والمؤمنـــون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمـــرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمـــون الصلاة ويؤتون الـــزكاة ويطيعون الله ورســـوله أولئـــك ســـيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم" (التوبـــة:٧١). فالدعوة إلـــى الله أمر واجب على المســـلمين ولا فرق فيه بين المرأة والرجل، بل إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خير ما تصرفه المرأة من وقتها ســـواءً أكان ذلك مع أهلها أم مجتمعها. ولقد كانت نساء السلف يوصين أزواجهن إذا خرجوا للســـعي والكســـب بقولهنّ: "اتقـــوا الله فينا ولا تطعمونا الحرام فإنا نصبر على الجوع ولا نصبر على النار". فما أجمل الحياة بـــين الزوجين إذا قامت على الدعوة إلى الله تعالـــى، فالحياة في بيت الدعوة إما لحظة وداع وأمل، أو لحظة حنين وشوق، أو لحظة لقاء وفرحة، ومن ثم لحظـــات إيمانية وتصحيح لتصرفات خاطئة، فتكون بإذن الله حياة طيبة وعيشة راضية وعمراً مبـــاركاً ووقتاً نافعاً، لا أن يذكر أحدهما الآخر بالدنيا وزينتها، بل تعينه على أمر الدعوة وتســـهّل له الصعاب، وتحتمل في ذلك الشـــدائد محتســـبة الأجر عند الله تعالى.

ولنأخذ نموذجـــاً من العصر الحديث علـــى تلك المرأة الداعية المعينـــة لزوجها، فقد ذكرت إحدى الأخوات المعاصرات فيما ترويه عن والدتها: "إن والدتنا كانت تقدّم دائما مصلحة الدعوة على مصلحة نفسها وبيتهـــا، وأذكـــر أنه لما قـــام والدي بتأســـيس المركز للدعوة طلبت أن يأخذ كثيـــراً من الأثاث عن طيب نفس ليعمِّر به المركز، فنقل الســـجاجيد والستائر والمكتبات وكثيراً من الأدوات، وكانت ســـعيدة بذلك غاية السعادة".

٣. الاستغلال الخيري:

وهذا باب واســـع في زماننا هذا، فما من مجتمع إلا وفيه المحتاج والجاهل والمريض والمعوق ومن يحتاج إلى مســـاعدة أو من يحتاج إلى المـــال أو الملابس أو نحو ذلك. وخير ما تســـتغل به المرأة فـــي دنياها العمل الخيري وإليك نماذج من العمل الخيري النسائي:

١. آمنة بنت الشيخ إســـماعيل، المعروف بالنقاش، امرأة عاقلة ســـديدة الرأي عالية الهمة كانت تدور على بيـــوت الفقراء وتتفقدهـــم بالعطايا الوافدة، ومـــن مآثرها المدرســـة الإصلاحية، أسســـتها عام ٢٧٠هـ ورتبت فيها إماما وقيِّماً ومدرّساً كما ابتنت عدة مدارس ومساجد.

٢. كانت حلل بنت عبد الله الحسين من النفوس الخيِّرة التي لا يقر لها قرار إلا بفعل الخير والعمل الصالح، فقد ابتنت مدرسة برأس وادي نخلان، وبلغ من شدة حبها للخير أنها أوقفت دارها التي تسكنها مدرسة وخرجت من بيتهـــا إلى موضع ابتنتـــه بالقرب من المدرســـة، كما كانت من المتصدقات المحسنات، فقد كانت تأمر من يفتش لها عن الأيتام ويأتي بها بهم فتكسوهم وتحسن إليهم.

٤. الاستغلال العلمي:

هذا البـــاب من أهم الأبواب التـــي ينبغي للمرأة أن تســـتغلها، ونلاحظ فـــي زماننا أن بعض النســـاء انصرفن عن طلب العلـــم، فنجد المرأة حاصلة على أعلـــى الشـــهادات الدنيوية ولا تحســـن الكلام عن نواقض الوضوء وآداب الغسل وأحكام النساء عامة، مما يدل على انصراف المرأة إلى شـــغل وقتها بالأمور الدنيوية، وإليك أختي نموذجاً لعالمة مسلمة كانت تعد من علماء التفسير.

يقول زين الدين الدمشقي الفقيه الحنبلي الواعظ المفســـر: "أنا أســـعد بدعاء والدتـــي، كانت صالحة حافظة تعرف التفســـير، وكنا نسمع التفسير من خالي، ثم أجيء إليها فتقول: ماذا فسر أخي اليوم؟ فأقول: ســـورة كذا وكذا. فتقول: هل ذكر قول فلان

أو الأمر الفلاني؟ فأقول: لا. فتقول: كيف ترك هذا؟ وكانت تحفظ كتاب الجواهر مجلدة تأليف والدها". فهذه والدة زين الدين كانت تعيب على أخيها كيف أنه لم يذكر أقوال علماء أجلاء في التفسير وهذا يدل على حرصها في طلب العلم.

ومن حرص المرأة على طلب العلم أن تهتم بقراءة الكتب العلمية والالتحاق بالدورات النافعة، وقد تيسر موضوع التحصيل العلمي ودوراته النافعة في عصرنا الحالي، فتستطيع المرأة بكل يسر وسهولة أن تتعلم وتتثقف في أمور دينها ودنياها عن طريق المواقع والمنتديات على الشبكة العنكبوتية. ومن المفيد للمرأة أن تكون لها مكتبة ترجع إليها وتجالسها ابتغاء طلب الأجر والثواب والعلم النافع. ومن الجميل أن يكون بينها وبين زوجها جلسات للقراءة ينتفع بها كلا الزوجين، فيبارك الله لهما في زواجهما ولا سيما إذا قامت الأسرة على أساس إسلامي تربوي، فيستطيع الزوجان بذلك أن يكونا من أسعد الناس وأقربهم إلى مرضاة الله.

٥. الاستغلال المنزلي:

إن استغلال المرأة لوقتها في منزلها من أكثر المصارف التي تستغلها المرأة على اعتبار أنها ربة البيت، فترتبه وتدبّر شؤونه. فالمرأة إذن هي ملكة المنزل يأوي إليها الزوج فيجد الراحة بعد العناء والسكن بعد التعب.

إن الخدمة المنزلية من العبادات التي تتقرب بها ملكة المنزل إلى الله تعالى سواء كانت هذه الخدمة لوالديها أم لزوجها، فهي تستغل وقتها في خدمة الآخرين منزلياً، مُقتدية بذلك بأسماء بنت أبي بكر الصديق، فقد كانت تعلف فرس زوجها الزبير بن العوام وتكفيه مؤونته وتسوسه وتدقّ له النوى وتسقيه الماء وتعجن.

والأفضل للمرأة وهي تقوم بأعمال المنزل أن تستغل وقتها الإيماني، فتحرك لسانها بذكر الله والدعاء والقرآن، فيضاعف الله أجرها مرتين كما كانت فاطمة بنت محمد صلى الله عليه وسلم كما وصفها الشاعر محمد إقبال:

فمها يرتل آي ربك بينما
يدها تدير على الشعير رحاها
بلت وسادتها لآلئ دمعها
من طول خشيتها ومن تقواها

٦. الاستغلال الشخصي:

أي أن تستغل المرأة وقتها استغلالاً شخصياً بممارسة هواية من هواياتها الخاصة مثل:

- ترتيب الزهور وتنسيقها.
- ابتكار المأكولات.
- الاهتمام بالخياطة.
- التمارين الرياضية.
- الرسم المباح.
- الإبداع في برامج الحاسوب.

ولقد كانت النساء منذ القديم يمارسن بعض الهوايات فقد روي أن امرأة كانت تحب الخياطة فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم ببردة فقالت: يا رسول الله إني نسجت هذه بيدي.

كذلك كانت زينب بنت جحش، فقد روي عنها أنها كانت امرأة صَنَّاعة باليد تدبغ وتخرز (تخيط الجلد) وتصدقه في سبيل الله.

وبعد فهذه محاولة متواضعة مني حاولت فيها أن أبيّن لأختي المسلمة طرقاً ووسائل تستغل فيها وقتها، عسى أن تتدبر بها اختلاف الليل والنهار، وتكون من أولي الألباب: "إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب" (آل عمران: ١٩٠).